تعقيب على :
السريانية في معلولا وصيدنايا

سعيد الديوه جي
الموصل / العراق

نشر السيد عيسى فتوح – دمشق – بحثا في العدد : 20 من مجلة اللسان العربي ، عن «السريانية في معلولا وصيدنايا» وفيها طرائف وغرائب ، ومما جاء في مقدمتها :

«كانت اللغة السريانية لغة سكان سوريا قبل الفتح الإسلامي الذي أدخل معه اللغة العربية ونشرها ، فتراجعت اللغة السريانية وانكمشت ، وهجرت شيئا فشيئا في المدن ثم في القرى ، إلى أن انقرضت كليا الخ ...» .

ما ذكره الكاتب قول غريب فيه تشويه للحقائق ، أو عدم اطلاع على تأريخ العرب في سوريا ، وما كان لهم من دول ومدن وآثار لم تزل تنطق بماضيهم المجيد في هذا القطر .

فالعرب سكنوا الهلال الخصيب – بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين دجلة والفرات – منذ أقدم العصور . فالهلال الخصيب متمم لجزيرة العرب ، وكلما ضاقت الجزيرة بالسكان ، أو ضاقت بهم أسباب العيش نزحوا إليه ، واستوطنوه ، وأقاموا لهم دولاً ، كان لها شأن قبل الميلاد بعصور ، ثم تعدوا الهلال الخصيب وسكنوا جنوب بلاد الأنضول ، وعرفت هذه البلاد باسماء قبائلهم فيها وفي الهلال الخصيب : ديار بكر ، ديار مضر ، ديار ربيعة ، ديار تغلب الخ ...

وكان للعرب في هذه الديار وقائع مع الآشوريين قبل الميلاد بقرون ، ومن ذلك : ما كان لهم مع شلمانصر الثالث – ملك آشور – في سنة 853 ق.م شن حملة على بلاد الشام ، وان «جندب ملك العرب» في الشام أمد أعداءه بألف جمل ، ولكن النصر كان حليف شلمانصر ، فانهزم جندب ملك العرب مع حلفائه .

وفي زمن تغلت فلاسر الثالث 745 – 727 ق.م زحف إلى بلاد الشام ، وممن قاومه «زبيبي ملكة دومة الجندل» .

وفي سنة 732 ق.م دفعت ملكة العرب شمسي لتغلات فلاسر جزية مع عدة قبائل عربية ، وكانت الجزية : ابلاً وطيوباً وذهباً وفضة وخضعت له ، كما جاء في نفس المصدر أسماء القبائل العربية التي كانت تحكمها هذه الملكة ، وأسماء رجال الوفد الذين تفاوضوا في الصلح ، وأدوا الجزية إلى ملك آشور ، وكلها أسماء عربية ، وموطنهم غربي بلاد آشور ، شمال بلاد الشام .

وفي هذا الكتاب أسماء مدن عديدة شيدها العرب ، وأسماء القبائل التي كانت في بلاد الشام ، والدول التي أقاموها .

وهل «الانباط» الذين أقاموا دولة كبيرة في طور سينا كانوا من السريان ؟ أو من القبائل العربية التي نزحت من الجزيرة وأقامت مدينة بطرا وسيطرت على الطريق التجاري الذي يصل بين الجزيرة العربية وبلاد مصر .

وأين كانت دولة تدمر وما لها من حضارة ، أليست القبائل العربية أقامتها ، وكان لها شأن في الحضارة والعمران والتجارة والقوة .

وأين كان الغساسنة ؟ أليس في بلاد الشام ؟ وما كان لهم من حضارة وعمران ، وأدب رفيع ، وعلوم ومعارف ، لم تزل آثارهم باقية إلى اليوم والقصائد التي قيلت فيهم ، واسماء الشعراء الذين نوهوا بمكانتهم في بلاد الشام ، ومنزلتهم في هذه الديار ، فهل كانوا يتكلمون اللغة السريانية ؟

وعليه فاللغة السريانية لم تتراجع بعد الفتح الاسلامي — كما يقول — وانكمشت وهجرت شيئاً فشيئاً في المدن ثم في القرى . وانما اللغة العربية هي لغة أهل البلاد منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا .

نحن لا ننكر أنه كان بعض السريان يعيشون مع العرب في ظلال حكمهم ، وكان لهم لغة وعلم وأدب ، ولكنها لم تكن لغتهم لغة أهل سوريا كافة ، بل لغة شعب يعيش مع اخوانه العرب الذين سيطروا على الهلال الخصيب وامتدوا إلى بلاد الأنضول .

والمصادر غير العربية كانت تسمي هذه البلاد «بلاد عربستان» باسم سكانها .

وما كان في بلاد الشام كان في بلاد ما بين النهرين — دجلة والفرات فالعرب سكنوا هذه الديار مع اخوانهم الاشوريين : شيدوا المدن وأقاموا حضارة عربية ، فكانت البلاد من مواطن العرب ، ومعهم بعض السريان .

وكانت لهم وقائع كثيرة — قبل الميلاد وبعده — مع الرومان والفرس ، وايامهم مشهورة ، وأخبارهم مذكورة لمن يقرأ عنهم المصادر العديدة — الشرقية والغربية ، وحتّى في العهد القديم — أفبعد هذا كله يقول الكاتب أن اللغة السريانية كانت لغة أهل الشام قبل الفتح الاسلامي ؟

كلنا نعلم أن الفتح الاسلامي — لبلاد الشام وغيرها من البلاد — كان فتح دين ولغة وعلم وحرية وفكر ومساواة بين الناس ، وان القبائل العربية زاد انتشارها في البلاد المفتوحة ، ونشروا الدين الإسلامي ، واللغة العربية التي طغت على اللغات المحلية التي كان يتكلم بها بعض الاقليات — ومنها في بلاد الشام — ولكن هذا لا يعني أن اللغة العربية لم تكن معلومة في بلاد الشام ، وانها دخلت بلاد الشام مع الفتح الاسلامي .

هذا ما لا يقوله من له الملم في التأريخ ، فالمصادر الكثيرة — المطبوعة والمخطوطة — أمام كل باحث يريد أن يقف على حقائق الأمور ، لا أن يأتي بافكار غريبة ، وجدها في مجلة ما ، أو أبدَى بها مستشرق معادٍ للعرب والإسلام .

فلغات بعض الأقليات كانت منتشرة عند بعضهم في الشام والعراق ، وغيرهما من البلاد ، ولكن بعد الفتح الاسلامي ، لم تصمد أمام قوة اللغة العربية وجمالها وسهولتها ، فتركوا لغاتهم وأقبلوا ينهلون من هذا المورد العذب ، ومع هذا لم يزل بعضهم يحتفظ في لغته في صلواتهم بالكنائس .

والذي أرجوه من الأستاذ الباحث ، إذا ما كتب بحثا أن يرجع إلى المصادر الموثوقة ، لتكون كتاباته علمية ، يرجع إليها ، ويؤخذ عنها ، لا ان يعتمد على ما يتقوله بعض الناس .

ومصادره التي ذكرها في نهاية البحث محدودة ، ولم يشر في الحاشية إلى المصدر الذي نقل عنه هذه الأخبار الطريفة .

والمصادر التي تبحث عن العرب في بلاد سوريا كثيرة جدا ، ويمكنه الرجوع إلى بعضها مثل :

تأريخ العرب قبل الاسلام : للدكتور جواد علي ، فسيجد فيه أخبارا كثيرة مفصلة عن العرب في الهلال الخصيب — ومنها بلاد الشام — وعن دولهم وحروبهم وحضارتهم ، وهو من أوسع المصادر في هذا الباب .

العرب في سوريا قبل الاسلام : رينه ديسو — نقله إلى العربية عبد الحميد الدواخلي .

العرب في الشام قبل الاسلام — محمد أحمد باشميل .

تأريخ العرب قبل الاسلام — جرجي زيدان — وغير هذه من الكتب الكثيرة .